تأملات في الفصام الجدلي بين الشرق والغرب

د. وليد أحمد السيد *

■ ما إن أقلعت الطائرة المتجهة للندن – من مطار الملكة علياء الدولي بمدينة عمان والمتجهة عبر دمشق في رحلة باتجاه واحد في ذات ليلة من أواخر شهر أيلول (سبتمبر) من العام –1996 حتى أسندت رأسي الذي يضج بالتعب إلى مقعد الطائرة. تدافعت عشرات الأفكار في رأسي بين ما قد مضى وبين ما ينتظر رحلة شاقة للدراسة ستمتد لعدة سنوات حافلة. كانت مشاهد الوداع الحزينة للأم والأهل والمقربين من الأقارب والأصدقاء تسيطر على بقية المشاعر المتضاربة. بعض تلك المشاعر كانت السخرية المريرة من «سذاجة» النفس المحاطة بالمنافقين والزائفين من المعارف الذين فضحهم خبر الهجرة للدراسة. تبسمت في نفسي بأسى ومرارة وصدمة بالغين لفقد «أصدقاء» فيما كانت مشاهد غضة ما تزال تتراءى في مخيلتي؛ بعض الزائفين بح صوته واختنقت عبارات التوديع التي خرجت «كحشرجات» غير مفهومة إذ علقت كغصة في الحلوق. وبعضهم – فيمن يقدم نموذجا لبعض تخلف العرب والمسلمين المعاصر – ممن عهد فيك الاستقامة جاءك من أقصى المدينة يسعى محاولا ثنيك عن طلب العلم في دول الغرب «الكافر»، إذ ما هي أهمية الشهادة العليا وهذه العلوم «الدنيوية» في مقابل الخسائر الجسيمة التي يتكبدها المرء بالعيش وسط «الكفار» والمنحلين بعيدا عن بلاد المسلمين، «وخسارة النفس والدين»، هكذا احتج أحدهم! قلة لا تكاد تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة اجهشت ببكاء مر كانت حقا ترجو لك الخير والتوفيق دون أمل في «تزبيطة» ما – كأن تيسر طريق اللحاق بك مثلا. حاولت صرف هذه الأفكار والنوم قليلا استعدادا للوصول لمدينة لندن حيث كانت بالانتظار مهمة جسيمة هي محاولة البحث عن سكن إذ كان السكن الجامعي «طافحا». وهكذا تتضافر في ذهن المغترب مشاعر الحزن والأسف والترقب والسخرية والمرارة والبهجة والغبطة، فضلا عن التعب والإنهاك الفكري والجسدي مع ترك الوطن والأهل المكتوين بلوعة وألم الفراق.

لم يكن حرم جامعة لندن، والذي يمتزج بقلب العاصمة ويتخلل شوارعها والمغاير للحرم الجامعي العربي المغلق، هو آخر المفاجآت والمفارقات حال التحاقي ببرنامج الدكتوراه في كلية بارتلت للعمارة في (UCL). دهشت فعلا لتناثر مباني الجامعة بين طرقات لندن الرئيسية، فالمباني كانت وكأنها تنداح هائمة على وجهها بين شوارع قلب المدينة، أو كأن الطرقات العامة بسياراتها وباصاتها الشهيرة ذات الطابقين كانت «تسيح» بينها. كانت إجراءات الأمن والحماية الإلكترونية على مداخل مباني الجامعة من أبرز المفاجآت غير المعهودة، إذ كان من الضروري «غربلة» الداخلين وتمييز الطلبة والأكاديميين عن مئات الآلاف من رواد لندن «ومشرديها» كيلا تصبح ممتلكات الجامعة وحرمها «غنيمة» مستباحة للصوص والمنحرفين الذين تزخر بهم شوارع مدينة العلم والحضارة. وكان يصعب أحيانا تمييز مبنى الهندسة عن مبنى التسجيل أو مبنى نادي الطلبة إلا من لافتة حجرية رقمتها يد نحات إنكليزي على الجدران الخارجية. فهذا المبنى اعتلى بنكا وذاك جاور محطة لقطار الأنفاق أو مطعماً من سلسلة المطاعم العالمية أو متجرا لبيع الكتب أو مقرا فرعيا لأحد البنوك. وعلى ناصية شارع الكلية قبع هذا البنك أو ذاك بصمت ومكر المرابي الجشع مترقبا ضحاياه من عموم المواطنين والطلبة والمغتربين لإيداع دراهمهم القليلة، ناصبا شباكه الرهيبة بإعلانات خادعة لقبول عرض أو قرض، من أطاعهم قذفوه في غيابات دَين مركب لا يخرج أحدهم منه إلا «منتوف الريش» هاربا مطلقا ساقيه للريح لا يلوي على شيء. بعض البنوك افترش مندوبوها الساحة الرئيسية للجامعة في خيمة نصبوها لإغواء الطلبة الجدد بفتح حسابات بنكية تحول لها ملايين الجنيهات من مختلف أصقاع العالم التي قدموا منها مقابل عروض «سخية» بهدية بنكية تصل لخمسين جنيها أو هاتفا محمولا «عتيقا» يمكن للفتيات استعماله كهراوة للضرب في حال الخطر لثقله. وتتوالى المقارنات في العديد من الأماكن والأحوال، منها ما يراه الوافد في «متحف» الخضار والفاكهة ذي الأسعار اللاهبة حين ذهابه «للمول» للتسوق حيث تتكدس السلع «كعينات» ملفوفة بعناية، فهذه «نصف» قطعة خيار أو تفاحة يتيمة لفت بعناية لبيعها بسعر يكافئ سعر «بكسة» كاملة من الخضار أو الفاكهة في بلاد المشرق (قبل 12 عاما طبعا!). ولا تني المفارقات والمقارنات تتوالى يوما بعد يوم وعلى مستويات متعددة أكثر تعقيدا ملوّحة ببداية أزمة ثقافية هي مرحلة حرجة وحساسة يمر بها كل مشرقي «تغرب». ولا أدري كم من هؤلاء أتيحت لهم فرصة مشاطرة صفحة من مفكرتهم على منابر عامة مع شرائح واسعة من النخب المثقفة في الوطن العربي الكبير!

أول ما يصطدم به المغترب العربي المثقف وجها لوجه هو أطروحة محمد عبده الشهيرة «رأيت في الغرب إسلاما بلا مسلمين ومسلمين بلا إسلام»! وهي مقولة تحوي مفارقة ضمنية بين الشرق والغرب، حيث أطلقها بعد معايشته للغرب لفترة تكاد تكون سطحية، وربما «ساذجة»، والتي مرت لعقود دون فرصة حقيقية لمراجعتها أو تدبر ملي أو عملي لها. فبعد غربة 12 عاما ومستمرة يمكن القول ببساطة أن مقولة عبده هي ذات شطرين كلاهما مغلوط وغير دقيق بتاتا! فسماحة الأخلاق الغربية منبعها ومبتداها ومنتهاها مصلحة مادية بحتة ومحضة. فالالتزام بالمواعيد في الغرب منبعه المصلحة والنظام «الدارج» ويسهل، بل ويصبح كسره حلالا زلالا حين تنفض المصلحة. وهناك مثل إنكليزي سائد مفاده «أن الرجل الإنكليزي إن كان بوسعه إخلاف وعده (والهرب بفعلته) دون مساءلة فعل ذلك على الفور!». فعبارات المجاملة المقتضبة التي تواجه المغترب هي كل شيء، وليس قبلها أو بعدها خلق! فالعلاقات رسمت حدودها المصلحة، والمصلحة الشخصية المحضة. وقد أخبرني صديق بجامعة كامبردج أن من أول ما درس في إحدى المساقات الأكاديمية العلاقات البراغماتية الخاصة التي قامت عليها العلاقات الغربية، التي يكرسها مثال سائد يدرس كحجر الزاوية في رسم العقلية الغربية، وهو يدور حول 13 نفرا انقطعت بهم السبل في عرض المحيط في قارب يتسع لـ12 فقط وعليهم الاختيار بين معاني الإيثار أو إلقاء واحد في المحيط بالقرعة لسلامتهم! «فإسلام» الغرب «ومسلميه» هو إسلام المصلحة والمنفعة الشخصية التي يتحلى بها رجل الأعمال المعاصر في «اصطناع» ابتسامة تحقق له المنفعة المادية، سرعان ما ينطفئ بريقها عند أول محك عملي براغماتي أو مصلحي. فالغرب قرر وبشكل صارم معالم حدود فاصلة أساسية بين المصلحة المادية وبين الخيرية الإنسانية. فالأولى تحركها نزوات ورغبات وماديات قام عليها والثانية تدفعها وترسي أسسها روحانيات وغيبيات لا يعترف بها. والمفارقة الجوهرية بين الشرق وبين الغرب ناقشها العلامة والمفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي في كتابه «السيرة النبوية» حين أفرد مساحة مهمة في مقدمته لتفسير سبب نزول ديانة الإسلام على العرب دون العجم في أوروبا أو الفرس عبدة النار آنئذ مثلا، رغم أن العرب عاشوا ظلمات جاهلية التيه والوثنية في عبادة الأصنام. وهي فترة حالكة من ظلام الجهل والخرافات عاشتها الأرض قاطبة حين نظر الله تعالى إلى الأرض «فمقتها عربها وعجمها» لما آل إليه حال البشرية من تخبط في ظلمات ما بعد اندثار حنيفية إبراهيم السمحة. فالعرب، كما يشير الندوي، لم تنطبع أو «تنحفر» في أفئدتهم وطبائعهم الشرور رغم وثنيتهم، بل ظلت أخلاق المروءة والنخوة والكرم والأصالة والقيم الحميدة لصيقة بمجتمعاتهم رغم ظلمات الوثنية والجاهلية التي عاشوها، على نقيض الظلمات التي عاشتها أوروبا؛ ظلمات الجهل وظلمات التعدي والظلم الإجتماعي، وظلمات الأنانية المصلحية التي تقيس ما حولها بمسطرة المادة فقط؛ ظلمات بعضها فوق بعض لا تزال تسود الغرب – رغم نور العلم – حيث «ترين» الظلمات على القلوب فتمنع عنها تمييز الحق من الباطل، وتغذي نفاقها حين تتضارب مصالح المادة والخير والعدالة الإنسانية، وما فلسطين وقضيتها ونزاعات الشرق والغرب المعاصرة ببعيدة كأمثلة حاضرة.

وهكذا تتشكل معالم «صدمة اغتراب ثقافية» يعاني منها المشرقي المغترب تتنامى يوما فيوما وتتفاوت حدتها بعدة عوامل تزيد أو تخفف من وطأتها، منها المحيط الجغرافي و«الجيتو» الثقافي المضيف وفئة المشرقي العمرية ومدى صلابة الإحداثيات الفكرية والحضارية في شخصه ووجدانه. فمما يواجه المغترب، وهو مما لفت انتباه «محمد عبده» لدرجة كبيرة، عبارات اللطف والتسامح والود والاحترام. فالسائد ومنذ اللحظة الأولى التي يضع فيها المشرقي رجله خارج الطائرة هو سماع عبارات «لطفا»، «أنا متأسف»، «معذرة»، و«رجاء». وفي الحقيقة فإن هذه العبارات على قصرها إلا أنها تشكل أولى الصفعات القاسية التي يتلقاها، فالسائد والدارج وما تعود عليه هو النظرات «الشزراء» الغاضبة، وغالبا ما تنتهي المحادثات القصيرة – في البيئة العربية المتوترة التي تنتظر فتيل الاشتعال – بتشابك الأيدي والقبضات العاتية بين فردين والذي سرعان ما ينتشر بفعل العصبية القبلية «التاريخية» كالنار في الهشيم في الحي والمجاورة السكنية. وفي بعض الأحيان تكون الآية مقلوبة إذ تسبق النظرات «الشزراء» الغاضبة وتشابك الأيدي والقبضات الخشنة أي كلمات مفهومة أو مظهر للمنطق. أما ثاني هذه الصدمات الثقافية فتتمثل في حقيقة مهمة وبسيطة، وهي أن له «حقوقاً» كإنسان! وتحتاج هذه الحقيقة إلى عدة سنوات ليستوعبها وعلى مراحل لئلا «تتضارب» الأسلاك في عقله. وتتفاوت سرعة الاستجابة لها حسب مرحلته العمرية ومدى تشرب عقليته للنظام السائد الذي قدم منه، حيث مورست عليه مختلف أنواع التهميش من قبل كافة فئات المجتمع ولسنوات طويلة.

وتعد الفترة الأولى من أصعب وأخطر المراحل في حياة الوافد المغترب وليس لها زمن محدد إذ تقصر أو تطول بيد أنها تعتبر مرحلة «اختبار الأسس والقيم المتوارثة» التي اكتسبت «أبا عن جد» مما ساد في بيئته المحيطة. فالفرد إنما هو ابن بيئته الإجتماعية، والتي تعمل على تشكيل، أو إعادة صياغة، إحداثيات فكرة وقناعاته الحياتية. وفي هذه المرحلة تعرض قيمه ومثله الأساسية التي اكتسبها على المحك وتغربل قيمة بعد أخرى. والأفراد هنا متفاوتون، فمنهم من يخلع قيمه قبل ركوبه الطائرة من وطنه ومنهم من يتركها بعد نزوله من سلم الطائرة ومنهم من يتشبث بها أو ببعضها سنة أو بضع سنين ومنهم من يعض عليها بنواجذه فلا يفلتها أبدا. والشاهد هنا ليس تقرير الخطأ والصواب ومراجعته إنما هي الآلية التي يمر بها الفرد في هذه المرحلة الدقيقة. ويتزامن تبلور هذه المرحلة الأولى مع إدراك إحدى أهم الميزات التي تمنحها الغربة وهي «الحرية» – وبما تعنيه الكلمة بمفهومها الواسع – إذ حدودها هي اللانهاية. فالحرية الجديدة تعني تحول المغترب إلى «نكرة» في بيئة فضفاضة تؤمن بالحرية الفردية كأقنوم مقدس من أقانيم نظامها الاجتماعي. ولعل هذه الحرية كانت حلم العربي تاريخيا إذ تفنن المثل العربي في هذا الإطار حين صدح مدويا بما تناقله الآباء والأجداد: «البلد التي لا تعرف أحدا فيها فشمر عن ساعديك واعمل ما بدا لك!». وهنا تتجلى معادن البشر ونوعياتهم بين حرية الاختيار وحرية القسر والقهر والتقبل التوارثي القطيعي الذي يفرضه المجتمع التقليدي على أبنائه دون مجال لأي حرية أو اختيار. ففكرة «الاختيار» إنما هي أساس الاختيار البشري وسر وجوده على هذه الأرض وسر منحة العقل. وهي من أبرز العلامات الفارقة بين العربي المهاجر الذي أعيدت تشكيل إحداثيات فكره في محيط غربي بعيد عن أعين الرقباء والمتلصصين اللصيقة، وبين ذاك المشرقي التقليدي القابع في وطنه والذي ترعرع في بيئة لا يتجاوز محيطها الكيلومتر المربع بين مدرسته الابتدائية مرورا بدراسته الجامعية وانتهاء بمكان العمل. فالأول مارس عملية الاختيار الواعية في ظروف ليست «وراثية» أو بدهية، وإنما عرض أسس عاداته وقيمه ونظم حياته والتي ربما كانت نتاج قبول جماعي «قطيعي» جارف ضمن أطر ونظم الجماعة التي تكون أقوى من نزعات رفضه أو قبوله لها. أما الثاني – «المتقوقع» محليا – فتنقصه وضع قيمه الأساسية على المحك واختبار معدنه، وبخاصة في مرحلة الصدمة الأساسية التي يمر بها المغترب بين عالمين متناقضين؛ الأول تلقيني يعتمد البيان أساسا لتكوين إحداثيات عقله، والثاني يعتمد العقل والعلم والمنطق في التعامل مع جميع الظواهر المحيطة. ومن هنا فغالبا ما تقوم رادارات «التلصص» المحلية التقليدية برصد تحركات وسكنات وأقوال المغترب لملاحظة أقل تغير في حياته وسلوكياته لمحاولات بائسة لتبرير «عقد» مجتمعات التلقين والقبول القطيعي، والنيل من فكرة التغرب برمتها على أنها «الثقب الأسود» الذي ما فتئ يبتلع المهاجرين إلى غير رجعة، ليلفظهم ملحدين ومنحلين أو مرتدين عن قواعد قبيلتهم التي تركوها. وينسى هؤلاء التقليديون والمتقوقعون فضائل الحركة والسفر وأن الماء الراكد يأسن، وأن الشمس لو ظلت ثابتة في كبد السماء لملها الناس من عرب ومن عجم.

ويعكس دوامة التناقض التي يعيشها الوافد الشرقي في الغرب فيلم شهير تم تمويله من قبل القناة الرابعة قبيل الألفية هو (فيلم ايست إز ايست)، والحافل بالتناقضات التي تنشأ ضمن عائلة مهاجر باكستاني قدم لإنكلترا في السبعينيات وحيدا فقيرا معدما حتى حل في وسط إنكلترا في منطقة (برادفورد) أو «براد – ستان» كما يطلق عليها في الفيلم وللطرافة. هذا الباكستاني «زهيد»، أو «جورج» كما تناديه زوجته، تزوج بانكليزية للحصول على الإقامة التي يرجوها كل وافد، وبعد ثلاثين عاما أصبحت عنده أسرة كبيرة مكونة من مجموعة من البنين أكبرهم تمرد على قوانين الأب التي تحتم عليه الزواج التقليدي من فتاة باكستانية لا يعرفها لينتهي به المطاف للتمرد يوم الزفاف والهرب وممارسة حياة مختلفة تماما عما رسم له والده. أما الأبناء الخمسة الباقون فيتدرجون في الولاء والطاعة للوالد الذي يريد فرض قوانين ثقافته الأصلية عليهم قسرا ودون أذن صاغية لظروف نشأتهم في بيئة تزاوجية بين معتقداته الخاصة وبين البيئة الإنكليزية التي أنشأهم والدهم بها. مشكلة «زهيد» أو «جورج» كما تسردها وقائع الفيلم هي أنه يعيش تناقضا داخليا في نفسه بين عالمين واحد قدم منه والثاني يعيشه. هذا التناقض يطبقه على عائلته الصغيرة التي عاشته ومارسته في طريقة حياتها وملبسها وما تأكل. فأولاده سرا يعيشون حياة غربية في مأكلهم ومتعهم تغذي ذلك أمهم الإنكليزية التي قمعها «زهيد» لدرجة ما، فيما يأتمرون بأوامر والدهم قسرا وعن غير قناعة منهم بما يفعلون، والسبب هو تناقض الوالد ذاته، حيث ما زال يعيش «عقدة» العادات والتقاليد للمجتمع الذي قدم منه ورقابة التقاليد اللصيقة. فخوفه من القيل والقال دفعه لإقامة جدار منيع بينه وبين أولاده فيما يخص اتباع التقاليد العائلية الموروثة ودون أن يفتح قنوات حوار وإقناع معهم، إلى أن يصطدم في نهاية القصة والفيلم مع أثنين من ابنائه يريد تزويجهما قسرا لابنتي رجل مهاجر مثله، لم يتح لابنيه حتى فرصة اختيارهما أو رؤيتهما قبل الزواج. وهنا تصطدم قيم العالم الذي نشأوا فيه مع قيم الوالد ويصبح «زهيد» على مفترق طرق حقيقي بين أن تنهار عائلته تماما أو أن يتغلب على ضعفه في مواجهة العادات والتقاليد التي جلبها ولم يطبقها على نفسه أصلا بزواجه من أمهم الإنكليزية. في الفيلم تمتزج السوريالية بالدراما بالواقعية بالتراجيديا لتعبر عن التناقضات التي يصادفها معظم من هاجر للغرب، والتي تحتم عليهم المسارعة بترتيب أوراقهم وبخاصة لمن أنجب وكبر أولاده في بيئة غربية. والقصص المختلفة لا تكاد تقدم وصفة سحرية جاهزة للحالات المختلفة التي تسعى جاهدة للتوفيق بين عادات وتقاليد أصيلة وبين نظام حياة يوفر ما لا توفره البيئات التي قدم المهاجر منها من حرية وفكر منفتح وعلوم وحضارة يمكن أخذ الجوانب المشرقة منها وما يناسب المرء مع المحافظة على الهوية والتراث والتقاليد. بيد أن القاعدة الذهبية تظل أن قنوات الحوار والإقناع ينبغي أن تظل مفتوحة على الدوام وهذا مطلب ليس في الغرب وحده، بل يظل أساسيا حتى في أخص خصوصيات العالم المحافظ. ولعل العالم المعاصر بانفتاحه المعرفي ووسائل الإنترنت والاتصالات لم تترك على أية حال مجالا لمجتمعات محافظة وأخرى ليبرالية إذ يبدو أن العالم كله يسير بوجهة واحدا منفتحا على نفسه بشكل غير مسبوق. لكن تظل القدرة على «الاختيار» هي مناط التكليف وحجر الزاوية في الوجدان الإنساني والبشري على مدار التاريخ وبغض النظر عن المكان أو الجغرافيا أو المجتمع.

ومن هنا تتبدى ضرورة وأهمية محاولة التقارب بين الشرق وبين الغرب في عالمين أحدهما تقليدي يقدس النص والآخر معاصر يحترم العقل ويستنير بالعلم؛ بين عالم يزهو بقيمه وعاداته المتميزة والأصيلة وبين الغرب بماكينة حضارته وآلية تفكيره والتي سبقت الأول بمراحل بعيدة. ومن هنا تبدو الحاجة ملحة لتبلور جيل كامل من المفكرين والمثقفين الذين يعيشون اليوم في الغرب ممن تأسست إحداثيات فكرهم وعقيدتهم ضمن إطار حضارتهم العربية ممن نجا من مراحل الصدمة الثقافية والانبهار الأعمى بالغرب، وذلك في سبيل تأسيس «ظاهرة الاستغراب»، والتي نعني بها نقل وترجمة علوم الغرب المتقدم لجسر الهوة بين عالمين متناقضين؛ الشرق والغرب! وإلى تأملات جديدة في مفكرة مهاجر في سبت قادم.

---

* كاتب وأكاديمي – مؤسس مجموعة لونارد ودار معمار بلندن

الفنان التشكيلي اللبناني وهيب بتديني يعرض اعماله في مجمع ابوظبي الثقافي

ابوظبي- «القدس العربي»

من جمال المجايدة:

استضافت هيئة أبوظبي للثقافة والتراث امس معرض الفنان التشكيلي اللبناني وهيب بتديني الذي اختارعرض لوحاته الزيتية التي تعكس الطبيعة اللبنانية والتراث في مجمع ابوظبي الثقافي.

المعرض الذي افتتح وسط حضور ثقافي وفني لافت، ضم في ارجائه زيتيات طغى عليها الطابع التراثي، وتفاوتت في نقل جزئيات الطبيعة اللبنانية من خلال بيوت القرميد والشلالات النابضة بالمياه ومن الاسواق القديمة.

فاللون الاخضر الطاغي على المشاهد، قابله احمر ارجواني صوّر من خلاله بتديني القرميد والبساط. ويبدو ان للقرويين نصيباً من المعرض، اذ قابل تصوير بعضهم في اللوحات منكبين على عملهم، رسم لوجوه القرويات الخجولة التي تغطيها الكوفيات العربية.

يذكر ان بتديني قد شارك في معارض عالمية آخرها كان في نيويورك في العام الماضي وله 1000 لوحة تتفاوت بين الزيتية والمائية والباستيل.

يضم المعرض الذي يستمر اسبوعا في ابوظبي أكثر من ستين لوحة تتراوح بين الزيت وبين الباستيل. وهذا العاشق للطبيعة وللتراث، حوّل قاعات اليونسكو الفسيحة الى واحة ألوان صارخة ثائرة حيناً وهادئة ساكنة حيناً آخر، تنثر النور في الأرجاء، وتحاول أن تجعله يخرق عقول وقلوب المشاهدين بغية إقامة حوار صامت عنوانه قلب النور وأزلية التراث.

بين ساحل لبنان وجبل الشوف ومنطقة الباروك وبين غاباته وأنهاره، تنقلت ريشة بتديني مسجلة في ما يشبه الحلم مكونات الطبيعة ومكامن الجمال فيها، وسبر اسرارها، فإذا بها تظهر في لوحاته مشرقة، بهية،مؤنسنة ،تنبض حركة وحياة، يضفي عليها النور وشاحاً منسوجة خيوطه من ذات الفنان ومن أحاسيسه.

إن الطبيعة اللبنانية، يقول وهيب بتديني، ساحرة تطبعنا بانطباع يضج بالمشاعر والأحاسيس، عندما نقف أمام المشاهد الحلوة التي توحي للفنان برؤى جميلة، تسحر ليس فقط اللبناني، وإنما الأوروبي والأميركي أيضاً، فيراها بعين أكثر صفاء.

أنا مقيم في الولايات المتحدة الأميركية، ومن خلال المعارض التي أقمتها هناك، وضمنتها مشاهد من الطبيعة اللبنانية الساحرة شعرت بإعجاب الناس هناك بتنوع الجبال، وبغابات الصنوبر المتناغمة مع الصخر ومع قرميد المنازل، والتي تشكل لوحة شفافة تترك انطباعاً جميلاً في القلب وفي العقل. ومن خلال رسم الطبيعة وتسجيل مكامن الجمال فيها، يكتسب الفنان في لبنان هوية خاصة يغزو بشفافيتها ويغني ألوانها العالم. أما التراث، فهو رمز تجذرنا في هذه الأرض واستمرارنا في التاريخ، لذلك، من واجب الفنان تسجيله ليبقى في القلب وفي الذاكرة حلقة وصل بين الماضي والحاضر والمستقبل».

ويتابع بتديني: «أنا أرفض أن يغيب الفنان اللبناني أو يهمش هذه الجماليات، ويتحول من وعي ومعرفة أو عدمهما الى أشياء أخرى بعيدة وغريبة عن واقعه. إن الواجب الوطني يفرض فهماً عميقاً لكل ما يمت الى حضارتنا بصلة، فإذا أردنا الاستقلال والتميز لوطننا، علينا التفاعل مع القيم الجمالية التي أنعم الله علينا بها».

خلال إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية، تعرف وهيب بتديني على الحضارات المتفاعلة في المجتمع الأمريكي وعلى نواحي الحياة اليومية المتسممة بالسرعة في العمل وفي التفكير وفي استغلال عنصر الوقت، إلا أنه بقي وفياً لزوايا مسرح طفولته في منطقة الشوف في لبنان، يلامس عن بعد سكينة منزله الريفي قرب المتعرجات وأشجار الصنوبر ويحاكي خيوط النور المشعة من كل زهرة ومن كل وجه حفر سماءه في قلبه وفي لوحاته رمزاً للعنفوان وللكرامة.

«أكسبتني إقامتي في الولايات المتحدة، يقول، نضجاً في مسيرتي الفنية نتيجة اطلاعي على التجارب والتيارات المختلفة، لذلك، أكسبني طابع الحياة الصاخب والسريع حب الحياة المتحركة والمتطورة باستمرار، الأمر الذي جعلني أعمل على ضرورة التطور مع نمط الحياة في التعبير عن الرؤى الفكرية التي تجول في خاطري.

وأنا أؤمن بأن التطور والتغيير مفروضان في الحياة، معاً يجعلان الفنان في تجدد دائم، يستوحي من الحالات التي يعيشها، مهما اختلفت وتناقضت، مواضيع حية ومتحركة وصادقة في لوحاته. من هنا، أنا أركز في شكل خاص، على التوازن بين عقل الفنان وبين عواطفه، الى جانب المعرفة المتأتية من الدراسة والاختبار.

لكن الولايات المتحدة لم تؤثر في أسلوبي الفني، فبينما نرى اللوحة الحديثة أضحت صناعة، أن تبدو في المقابل لوحاتي مركزة على الإحساس تنبض بالمشاعر وخصوصاً بالحب وبالحنين. إن الفنان يقف دائماً أمام الجدلية التي تفرضها الأساليب المستحدثة كل يوم، فإذا انجرف في تيارها، لم يعد بمقدوره تسجيل حضارته وخصوصيتها للتاريخ».

اللافت في المعرض، الى جانب اللوحات النابضة بعشق الطبيعة: أخرى تعكس تأثر الفنان بالصور التراثية، من الدبكة اللبنانية، الى النارجيلة، الى الكركة، الى وجه الفلاح المتميز بملامح العنفوان والقوة، الى مشاهد من الحياة القروية، الى البيت اللبناني العريق، الى سوق القرية الذي يضج بالحيوية، «إن هذه الصور التراثية مخزنة في ذاكرتي منذ طفولتي، إلا أنني اليوم صرت أدركها بوعي وبنضج وانطلاقاً من إيماني بضرورة حفظ هذه النواحي الحلوة من حياتنا في لبنان، سجلتها في لوحاتي خوفاً عليها من الزوال الذي بدأ يهدد تراثنا العريق.

وفي اللوحات التراثية، كما في لوحات الطبيعة، اعتمدت اسلوب التحرر من التفاصيل، ولذلك، يعود الى النضج والإشراق الى مراحل أبعد من البقاء في رسم الأشياء بحذافيرها.

علينا أن نتجاوز مرحلة التصوير الآلي الذي كان سائداً من قبل، وأن ننقل الفن من المادية الى السمو نحو الرؤى والأحاسيس التي تطال بشموليتها الإنسان الى أي مكان أو زمان انتمى.

وللمرأة عند بتديني صورة خاصة ومميزة فهي رمز الجمال كما في لوحة الراقصة، ورمز القوة والحماية كما في لوحة الملجأ حيث تبدو حاضنة لأطفالها خوفاً من الحرب ومن الموت، ورمز للحب المطلق وللعطاء اللامحدود كما في لوحة الأمومة. «إن المرأة في لوحاتي، يقول، هي موحية تماماً مثل الطبيعة، خلقها الله مكتملة بميزات الجمال والسحر والرومنطيقية والعاطفة. إنها بالنسبة الي، أصدق بإنسانيتها من الرجل وأكثر ليناً.

«في العصور الغابرة كانت المرأة تقود الجماهير في أوقات الشدة، وفي أوقات السلم كانت تمارس أمومتها وأنوثتها وهي لا تزال الى اليوم، تعرف كيف تتأقلم مع كل الظروف والمعطيات، من هنا شغفي بهذا الكائن الذي يرمز الى الخصب والحب أنا أعتبرها مكملة للحياة، وبدونها لا حياة، لذلك، حرصت على رسمها في شخصياتها المختلفة من

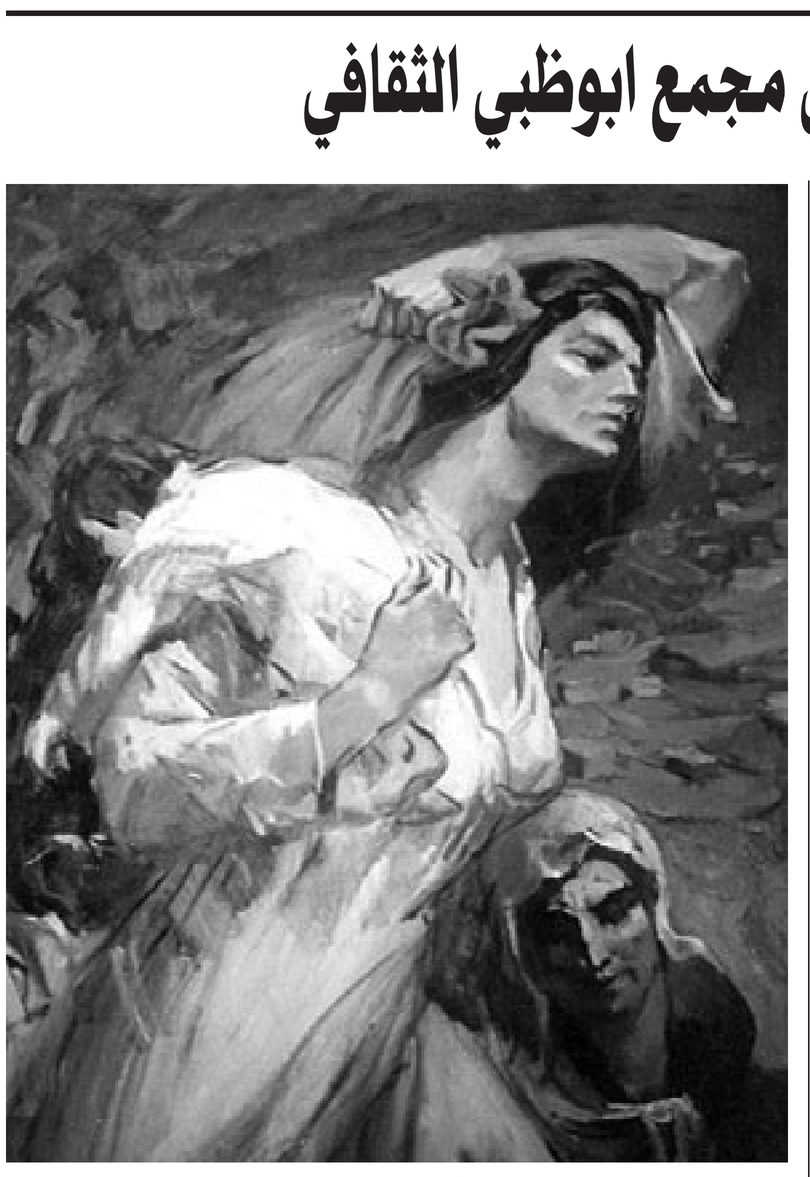

المثيرة والمغناج، الى القائدة.. إنها في كل الأحوال جميلة، تستحق التقديس، نظرا الى طبعها القائم على بذل الذات في سبيل الآخرين.

في المعرض مجموعة من لوحات الباستيل، التي، وإن دخلت ضمن إطار موضوع الطبيعة، إلا انها امتازت عن الزيتيات في كونها تعتمد أسلوبا قائما على العنف والصخب في استعمال الخط واللون. في الباستيل، حرصت على إبراز الثورة الكامنة في نفسي من الظلم اللاحق بالإنسان وبالطبيعة نتيجة المدنية والتطور، لذلك بدت الطبيعة صاخبة من ناحية اللون وعنيفة من ناحية الخط، ضمن إطار الاختصار للمساحات اللونية.

تداعيات

امبراطورية فلسطين

راضي د. شحادة *

■ بالرغم من نفوري الشديد من النظام الأمريكي الجشع والمستعمر والظالم والناصر والمشغّل والمشجّع للنظم التي تؤيّده في توجّهه هذا، ابتداء من نظام اسرائيل ومرورا بنظم الاستعمار الأوروبي القديم من أمثال انكلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا..الخ، وتعريجا على نظم المختَرة العربية التي اقنعتها الامبراطورية الامريكية بأنّ حياديتها او ولاءها هو الضمان الوحيد لبقائها، فاقتنعَتْ انّ حدودها لا يمكن أن تتجاوز حدود ولاءاتها والا فإنها ستعرّض نفسها للخطر، فقد حسدت تلك الامبراطورية كثيرا، وقلت أن كراهيتي لها ربما ليست نابعة فقط من صفات نظامها المستعمر والداعم لسائر المستعمرين، بل ايضا بدافع الغيرة والحسد، فما كنّا فيه أصبح لهم، وكأنما هو يُنتزع منا كي يمتلكوه لأنفسهم ولكن بقواهم الذاتية، مع فارق بسيط، وربما كبير، انهم استعمروا القارّة استعمارا بعد أن قضوا على سكانها الأصليين، بينما نحن كنّا نعيش في قارّتنا فلسطين الممتدة عبر عالمنا العربي المترامي الأطراف لدرجة أن ساكنيه أُطلق عليهم اسم «الأمّة العربية»، وجاء المستعمرون فطردوا ثلثنا وقتلوا ثلثا آخَر وأبقوا الثلث المتبقي يعيش فيها الى الآن.

إلا أنّني عندما تابعت احتفالات تنصيب «باراك حسين اوباما» الأفريقي الأصل الأسود ذي الجينات المختلطة من أب مسلم أسود كينيّ وام مسيحية امريكية بيضاء، ومن ثم يتركه والده فترافقه امه الى اندونيسيا حيث تتزوج هي من اندونيسي مسلم فيتعلّم اوباما هناك مرة في مدرسة اسلامية ومرة اخرى في مدرسة مسيحية ليصبح اندونيسيا على امريكي على أفريقي، ليكتسب لاحقا وبقوة خليط جيناته ومكتسباته ثقافة انسانية كونية، فيتربع على كرسي عرش الإمبراطورية العظمى.

أليس الخليط الجيني والمكتسب المتمثل في جسد هذا الفرد هو ذاته الخليط الذي يتكوّن منه جسد امبراطورية الولايات المتحدة الأمريكية؟ أليس المواطن فيها هو المهمّ وليس دينه؟ انها خليط من سود وبيض ومسيحيين ومسلمين وهندوس وبوذيين وملحدين وبشر من كل الأجناس والأشكال الموجودة على وجه الكرة الأرضية.

نعم إنّ فلسطين امبراطورية مايكروكوزميّة، ان لم تكن قارة كونية يعيش فيها كل انواع البشر على اختلاف الوانهم ودياناتهم، وهي مهد الكتب السماوية وصانعة الأنبياء، وتنوّع تضاريسها وطقسها يجعلها تبدو جنّة الله على الأرض..أليس من دواعي الحسد والغيرة أن تتحول من مكان فيه كل مواصفات الحياة الأممية والكونية والتآخي بين كل انواع البشر، الى بؤرة تجارب متّبعي فلسفة وسياسة فرّق تسد، فيحوّلها كل انواع الاستعمار والحكّام وأتباع المدّ الديني المتعصب الى دولة يهودية، وربما لاحقا الى دولة اسلامية، او ربما ينادي بعضهم بتحويلها الى دولة مسيحية، بدلا من اعادة كنْز خلطتها الجميلة الى جوهرها وأصلها؟ هل اصبحت فلسطين في أمريكا أم امريكا في فلسطين؟ هل قامت امبراطورية أمريكا على أنقاض امبراطورية فلسطين المشرذمة تحت وقع نعال فلسفة فرّق تسد، ونعال ساكنيها الجدد؟

الاستعراض الرائع الذي قامت به امريكا استقبالا لرئيسها الجديد بعد انتخاباتها الديمقراطية بناء على دستور لا يجرؤ رئيس او مواطن فيها أن يحيد عن مبادئه من جهة، ومن جهة أخرى التشرذم العربي الذي رافق ذلك الاستعراض في مؤتمر القمّة الاقتصادية المنشق والمتشرذم عن القمّة القَطَريّة المنشطر عنه الى مؤتمر القمة السعودية..الخ لا يعبّر الا عن الانحطاط المحبط الذي وصل اليه حالنا العربي، وبخاصة بعد كل هذا الدم الذي لا يتوقّف من جسد ابناء امبراطورية فلسطين التي تشرذمت مع تشرذم العرب، والذي وصل قمّة تدفّقه في غزّة في قمّة انعقاد القمم العربية الفاشلة والمؤجلة والمنعقدة على وهم وخراب وخلاف.

ويقول البعض متبجّحا: ربما هكذا أفضل، فلماذا الانتخابات، ولماذا الديمقراطية، فكثير علينا نظام الشورى؟ لو أنّ مصاريف احتفالات الأمريكان بتنصيب رئيسهم الجديد خُصّصت لفقراء العالم ولجياع امريكا فهذا افضل من هذا البذخ الذي إن دلّ على شيء فهو يهدف الى رفع معنويات المواطن الأمريكي الذي لا يزال يصارع من أجل إبقاء امبراطوريته أقوى الامبراطوريات إن لم تكن هي الامبراطورية الوحيدة؟ نعم ها هم زعماؤنا الأشاوس العباقرة يوفّرون مصاريف الديمقراطية ورفاهية وبذخ الانتخابات وترسيخ دول المؤسسات، وهذا ما جعل شعوبنا العربية تعيش برخاء ونعيم فتنعم الآن بأبهى صورة لنموذج أمّتنا العربية الخالدة ذات الرسالة الواحدة. الم تلاحظوا غزّة وهي مزيّنة بأزهار شقائق النعمان الحمراء لشدّة ما نزل عليها من بذخ واحتضان من أشقائها العرب، فكذبا يدّعي المدّعون أنّ هذا اللون الأحمر هو دم مسفوك يسيل في أنهارها بديلا عن مياهها المقطوعة عن عطشاها وجياعها والمبادين فيها؟

بوركتم يا زعماءنا الأشاوس على هذه القمم الشمّاء، وعلى هذا التخطيط المحكم الذي يشكّل بديلا للديمقراطية الغربية المزيّفة التي تُحَوّل خيرات الشعوب ومكتسباتها الى مصاريف لا داعي لها من أجل انتخاب رئيس او برلمان او حكومة تدير البلاد بقوة الدستور. لا بل انّ هؤلاء الكفرة والمشركين والملحدين المستعمرين الامبرياليين يصرفون جلّ وقتهم على المختبرات والاختراعات واكتشاف الفضاء، وهذا كفرٌ لأنّ صرف الوقت على هذه الأمور هو على حساب الصلاة والدعوة الى الله العلي العظيم كي يقبلنا في الحياة الخالدة بدلا من هذه الحياة الدنيا والدونية والدنيوية الزائلة. لماذا كل هذه المعمعة البذخيّة بينما نستطيع نحن بدهائنا وفراستنا العربية أن نسلّم كل هذه البنود الى شخص واحد هو الآمر الناهي وهو صاحب القرار وهو الحاكم بأمره الى حين ينْزله الخالق الأعلى عن عرشه فيدعوه الى يوم الحساب، علْماً أنّ ذلك المدعو الى الموت صاغرا كان قد حسبها جيدا قبل فوات الأوان فعيّن خليفة له من أبنائه او من مقرّبيه كي لا يفسح المجال لأي انقلابي او انسان مشكوك في نواياه الديمقراطية الانتخابية الليبرالية التحررية الامبريالية والاستعمارية، فيستلم الحكم مكانه دون أي وجع رأس وبأقلّ ما يمكن من مجهود؟

ولماذا النقاش المتعب وتحريك العقول وصراع الأدمغة وصراع الرأي والرأي الآخر صارفين طاقتنا عبثا في حين نستطيع أن نتقدّم بالجملة وننهي كل خلافاتنا دون تحضير و«خَبْط لزق» بتبويس اللحى وتوزيع الابتسامات البلاستيكية على بعضنا البعض فتنتهي المشاكل بضربة حظّ ولمسة ساحر دون اية حاجة لأية خطّة مغامرة قد تجعلنا نتضارب بالآراء والأحذية فنتبهدل امام شعوبنا وأمام العالم فوق ما نحن مبهدلين كما تبهدل بوش رحمة الله عليه في آخر أيام حذائه بسبب ضربة حذاء شاب متهوّر من العراق لا يفقه شيئا في السياسة ومصلحة الأوطان وفلسفة الولاء للحكام اسمه منتظر الزّيدي؟

ولكن كيف جاء حكّامنا العرب الى كرسي الحكم؟ واذا استولوا على الكرسي الى ابد الآبدين ودهر الداهرين آمين، فهل هذا بحُكم بطشهم وقمعهم لشعوبهم وبدافع حكمتهم ودهائهم ام ربما لأنّ الشعوب أصبحت عاجزة عن اختيار مَن تريده من الحكّام بناء على إرادتها هي وليس بناء على ارادة الحكام؟ اذا كانت شعوبنا تنتخب برلماناتها كي تنتخب برلماناتها رؤساءها وملوكها، ويرضون لهم حكم التوريث الذي يخوّل للحاكم تنصيب نفسه بديلا عن المؤسسات، فهل «هيك مزبطة بدها هيك ختم»؟ هل الشعوب بريئة مما هي فيه؟ هل الشعوب حقا مغلوبة على امرها؟ واذا كان الأمر كذلك فإلى متى؟ لقد طالت اللعبة وطال الانتظار.

هل اصبحت امريكا امبراطورية تتّحد فيها خمسون ولاية لتشكل الولايات المتحدة الأمريكية يحكمها نظام واحد بينما نحن أشباه جزر يحكمها ولاة وزعماء طوائف ندّعي زورا وبهتانا اننا أمّة، بينما نحن نعيش في أشباه جزر تبدأ بنماذج شبه الجزيرة العربية امتدادا الى الامارات والممالك والسلطنات والجمهوريات الشمولية، وواحات سايكسبيكويّة قبلية دينية طائفية مشرذمة صاغت شكلنا «العصري» الحالي المتخلّف على هيئة نظم حكم وراثية خلافية ملكية كتبت شيكا مفتوحا يخوّلها بامتلاك كل الوطن بمن فيه من مواطنين ومن خيرات ومؤسسات ومساحات لصالح المتربعين على عرشها؟ هل نستطيع أن نعمّم تجربة الامبراطورية الأمريكية على أمّتنا فنؤمّمها على طريق الخير وليس بانتهاج سبيل الابادة والشرّ؟ متى تصبح امبراطورية فلسطين هي امبراطورية الأمة العربية الأممية الخالدة؟.. حلمت كثيرا فمتى يتحقّق الحلم؟

---

* كاتب ومسرحي فلسطيني من الجليل